
د.محمد المبارك
مدرسة البطولات
ومصنع الأبطال
دراسة فى مفهوم البطولة عند العرب
الطليعـــة العربية في تونـــس
لا تراجع بل خطوة الى الأمام
منشورات 1995 الطليعة

مدرسة البطولات ومصنع الأبطال

دراسة في مفهوم البطولة عند العرب

د.محمد المبارك

دمشق 1959

مفهوم البطولة عند العرب

يختلف مفهوم البطولة من أمة الى امة اختلافا كبيرا . وللبطولة عند العرب معنى يختلف عن معناها عند الامم الاخرى ؛ ويتجلى للبطولة عند غير العرب مفهومان أو معنيان :احدهما مفهوم الغربيين الماديين قديما وحديثا . فالقوة والتغلب على الخصم بالحق أو بالباطل ، وتجميع الثروة والمال ، وفتح البلاد واستعمارها وتكوين الامبراطوريات الواسعة ، والذكاء والدهاء في أي طريق استعملا في الخير أو الشر في الاذى والنفع ؛ كل ذلك من البطولة ، ولو ان صاحبها أزهق الارواح وداس الحقوق وظلم الضعفاء واستعبد النـاس . ومفهوم آخر عند الشرقيين الروحيين يتجلى في الزهد التام في الحياة ومتعها واضعاف الحواس والجسد ، ومقاومة الفطرة البشرية التي فطر الله الناس عليها ، والوقوف من معارك الحياة سواء مع الطبيعة أو في المجتمع البشري موقفا سلبيا ، والفرار الى حياة روحية يزعمون خالصة .

اما مفهوم البطولة عند العرب ، فلم يكن في يوم من الايام قريبا من أحد هذين المفهومين ؛ قد تكون هذه البطولة ضيقة النطاق محدودة الافق في عصر ما كالعصر الجاهلي ، وواسعة النطاق متعددة الآفاق في الاسلام ، ولكنها كانت دوما من نوع واحد وطبيعة واحدة ومتجهة في اتجاه واحد .

ان البطولة عند العرب تتجلى في فعل الخير والاقدام عليه ، في فعل المكارم والمحامد والمروءات . انها تتجلى دوما في تقديم ما ينفع الناس للناس ، وفي تقديم الخير سواء أكان هذا الخير مالاً يقدم أو علماً يفيد أو اعانة على حق أو اغاثة للمهوف . ولذلك كان لفظ الخير في العربية دالاً على كل هذه المعاني ، ولو جرّ ذلك الى خسارة المال أو غيره مما يعز على الانسان حتى نفسه ، والجود بالنفس أقصى غاية الجود .

لقد تجلت هذه المعاني عند العرب في الجاهلية قبل الاسلام ضمن نطاق حياتهم القبلية ، وفي محيط الصحراء توارثوها جيلا بعد جيل كما قال شاعرهم :

سجية تلك فيهم غير محدثة　　　ان الخلائق فاعلم شرها البدع

او كما قال الآخر :

فما يك من خير أتوه فانما　　　توارثه آباء آبائهم قبل

لم يكن العرب ليتهالكوا كغيرهم على لذائذ الحياة ولو دنست شرفهم أو ادخلت الضيم والظلم على غيرهم ؛ وليسوا كاليهود وغيرهم

من الامم الحريصة على الحياة بأي ثمن يقول المتلمس الشاعر الجاهلي :

ألم تر أن المرء رهن منيــة صريع لعافي الطير أو سوف يرمس
فلا تقبلن ضيماً مخافةميتتة وموتن بهــا جرا وجلدك أملس

والمال لا يكسب الانسان الشرف فقد ينال الشرف العظيم وهو فقير:

قد يدرك الشرف الفتى ورداؤه خلَق وجيب قميصه مرقوع

والعربي يدفع بفضله ، وهو كل ما يزيد عنده من مال أو جهد ، الى غيره ولا يبخل به فالمال انما يجمع لاداء الحقوق وصنع المعروف قال عروة :

دعيني اطوّف في البلاد لعلني افيد غنى فيه لذى الحق محمل
أليس عظيمــاً أن تلم ملمــة وليس علينا في الحقوق معول

ولذلك كان المال عنده وسيلة لا غاية ، كما هو الآن في حضارات الغرب في أوربا وامريكا ، ولكنها وسيلة تصلح لان ينتفع بها وينفع بها الناس وليس رجسا يتجنب ويزهد فيه كما هي الحال عند الشرقيين؛ ولهذا فان زيادة المال لا تبطره ونقصه لا يذله ويفقر نفسه لان المال منوط به وليس هو المتعلق بالمال ، وقيمة المرء بنفسه وفضله لا بماله • يقول حــاتم :

غنينا زمــانا بالتصعلك والغنى وكلا سقاناه بكاسيهما العصر
فما زادنا بغيا على ذي قرابــة غنانا ولا ازرى باحسابنــا الفقر

والعربي يستمد معاني الخير هذه من منبع الخير ومصدره ، من الله الذي آمن به منذ عهد بعيد ولو شاب ايمانه في بعض الفترات شيء من الشرك أو الوثنية الداخلة عليه من الخارج ، وهو يعتقد بخلود الاعمال

الصالحة يقول الحارث بن عباد :

كل شيء مصيره للزوال غير ربي وصالح الاعمال

ويقول امرؤ القيس :

والله انجح ما طلبت بـه والبر خير حقيبة الرجل

ويقول النابغة :

لهم شيمة لم يعطها الله غيرهم من الجود والاحلام غير عوازب

ولذلك فهو يفعل الخير لاليثيبه الناس فان مرجع ايمانه بالخير والعمل الصالح الى الله . يقول قيس بن الاسلت فى اسير عفا عنه :

اسرت مخلدا وعفوت عنـه وعنـد الله صالح ما اتيت

ويقول عبيد بن الابرص :

من يسأل النـاس يحرموه وسائل الله لا يخيب

ويقول الحرثان بن الحارث العدواني :

ان الذي يقبض الدنيا ويبسطهـا ان كان اغناك عني سوف يغنيني
الله يعلمكم والله يعلمني والله يجزيكم والله يجزيني

فلما ظهر الاسلام ، وخرج محمد بن عبد الله صلوات الله عليه من بين أظهرهم ، ترسخت معاني البطولة هذه واتسعت آفاقها . وخرج العرب من صعيد اكرام الضيف في الصحراء وبذل الفضل وعمل المعروف في ذلك النطاق ، الى بذل الخير الاكبر الى البشرية في الصعيدالانساني. لقد وجد الاسلام في العرب دعامـة راسخة ، واستجـابة حاضرة ،

واستعدادا قدره الله في الازل . لقد قضت حكمة الله في أن « يبعث في الاميين » وهم العرب « رسولا منهم » ، وان يتخذ من العرب تراجمة دينه ، وحملة رسالته ، وشراح دعوته ، والنموذج الانساني الاول لتطبيق المبادىء الخالدة التي أرادها للبشر جميعاً . وان الذين يطعنون في العرب ويجعلونهم قبل الاسلام همجاً متوحشين منغمسين في الرذائل خالين من المكارم ؛ إنما يطعنون في حكمة الله واختياره ، ويطعنون في المعدن الذي منه خرج اشرف البشر وصفوة الخلق محمد رسول الله . بل يسفهون قوله ، وقوله أرفع من أن ينال منه نائل اذ يقول : « انا خيار من خيار من خيار » واذ يقول : « الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام اذا فقهوا » . لقد كان العرب في الجاهلية قوة مضيعة ،و فطرة طيبة أصابها في عهد الفترة بعض الشوائب، فكانت تلك النقائص التي انتقدها القرآن وصححها . لقد ضلوا الطريق وهم سائرون ، وليس ضلالهم ترديا في السفاسف أو الخنا ، ولكنه حيرة وغفلة وخطأ اتجاه . قال تعالى في وصف رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم: « ووجدك ضالا فهدى » لقد وجد العرب في الاسلام الفكرة المواتية لتزكية مواهبهم ، والتربة الصالحة لنمو مكارمهم ، والعقيدة العادلة التي تتجاوب مع نفوسهم ، فوعوها وحملوها وكانوا خير واع لها وخير داع اليها . وجعلهم الله المسؤولين عن فهمها وحملها ،مسؤولية مستمرة الى آخر الدهر لاتنفك عنهم ؛ ولا يمكن بغير هذا المعنى ان نفهم معنى قوله تعالى: « انا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » . فهم الذين

يعقلونه اذ نزل بلغتهم ، وهم الذين يبلغونه الى غيرهم قولا وفعلا ، وهم المسؤولون عن أنفسهم وعن الانسانية كما يسأل المربي والمعلم عمن عهد اليه بتعليمه وتربيته • **« وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون »**

إن ما أوتي العرب ، قبل الاسلام ، من فطرة سليمة ، وما حازوا من المكارم والمحامد أصبح بعد الاسلام مصدر خير للانسانية ، ومعدناً تظهر منه البطولات الحقيقية في الافق الانساني الجديد لتقدم للانسانية نوعاً جديداً من البطولات الحقيقية التي ترقى بالانسان والانسانية دون ان يغادر فطرته وطبيعته ، ودون ان يفر من معركة الحياة نحو الغايات المثلى والحياة الخالدة • وبهذا الافق الجديد الذي فتحه الاسلام بفكرته وبهذه الوجهة التي حددها في آفاق الحياة اللانهائية جعل من بطولات علي وعمر وخالد وأبي عبيدة المحلية القبلية ، التي كانت تبيد مع رمال الصحراء بطولات عالمية خالدة •

بين المادية والمثالية

لا يزال يذكر الناس في دنيا العرب ، وفي اوساط الشعوب الاسلامية ، عدل عمر وحزم أبي بكر ومثالية علي وزهد عمر بن عبد العزيز وشجاعة خالد بن الوليد وحنكته في ادارة المعارك ، وكرم حاتم وحكمة زهير وشجاعة عنترة وجهاد صلاح الدين •

ان هذه الصفات خلدت اصحابها حتى عرف كل واحد من هؤلاء

في جمهور العرب والمسلمين بصفته البارزة التي جعلته حيا في القلوب ماثلا في الاذهان .. قدوة لملايين البشر .

ذلك ان من خصائص هذه الامة العربية انها تقدر العمل لذاته ، وتخلد الصفة التي تستحق التخليد ، فلا تلتبس الصفة بالشخص فيقدس الشخص بدلا من الصفة ، وذلك خلافا للامم الاخرى التي التبست لديها البطولة بين الشخص والصفة والعمل ، فقدسوا الاشخاص وخلدوهم لذاتهم بدلا من تخليد صفاتهم ومكارمهم وكان لذلك عند غير العرب مظاهر واضحة من ذلك ما كان عند اليونان قديما ، وعند الهنود حتى في العصر الحاضر ، من تصنيف ابطالهم بعد موتهم في طبقة الآلهة ، ومن ذلك تخليدهم لاجسامهم بتحنيطهم كما هي عادة الفرعونيين ، او اتخاذ تماثيل لاجسادهم كما هي عادة الرومان واليونان قديما والاوربيين حديثا . بينما يتخذ العرب تماثيل في قلوبهم لمكارم ابطالهم فلا يخلد البطل في لحمه ودمه ولون بشرته ومعالم جسمه وانما يخلد ذكره وتحمد افعاله قال حاتم لزوجته :

أماويّ إن المال غاد ورائح ... ويبقى من المال الاحاديث والذكر

وقالت الخنساء في اخيها صخر :

ترى الحمد يهوي الى بيته ... يرى أفضل الكسب ان يُحمدا

وقالت :

نعف ونعرف حق القرى   وتتخذ الحمد ذخرا وكنزا

وهذا الالتباس بين الشخص والصفة التي تستحق التخليد موجود عند الامم غير العربية سواء اخذ التخليد معنى دينيا او غير ديني .. ففي مجال الدين انقلب تكريم الاشخاص الصالحين والابطال لدى تلك الامم الاعجمية عبادة وضربا من الوثنية ونوعا من الشرك وتعدد الآلهة ، حتى ان كثيرا من رجالات الاسلام من طبقة الصحابة او من بعدهم غدوا في نظر الكثير من ابناء هذه الشعوب الاسلامية غير العربية في محل من التقديس يجعلهم في مرتبة تتجاوز البشرية واعتقد بعضهم تجلي الالوهية في كثير من هؤلاء سواء من آل البيت او الصحابة او رجال السلف الصالحين أو غيرهم ايضا وهذا ما حدث كذلك عند الهنادك والبوذيين وغيرهم .

وقد يأخذ هذا التخليد معنى غير المعنى الديني ولكنه يبقى مع ذلك نوعاً من الوثنية والخضوع للبشر أو تقديس ناحيتهم المادية كما هي الحال بالنسبة الى الغربيين من اهل اوربا وامريكا في تخليدهم لرجالاتهم من الاحياء او الاموات .

ان العرب بفطرتهم يميزون بين العنصر الخالد الباقي ، وهو الخلق او الصفة الكريمة التي اتصف بها العمل كالعدل والكرم ، والعنصر الفاني وهو الشخص نفسه بلحمه ودمه . ان البطولة في عمل خالد بن الوليد لا في شخصه ، فاذا عزل خالد فان العمل يجب ان يستمر ؛ وان وظيفة الرسول بتبليغ الرسالة ، فاذا مات وانتقل الى جوار ربه فان رسالته باقية والعمل بها مستمر (من كان يعبد محمدا فان محمدا قد

مات ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت) وقد كان لهذه النظرة أثر في حياتهم السياسية والادبية .. فشيخ القبيلة في الجاهلية والامير والامام في الاسلام يتبع ويطاع مادام على طريق الحق ، قائما بالقسط، فاذا انحرف او شذ ، او جار وظلم فلا طاعة له على الناس ، فطاعتـه ليست متعلقة بشخصه ولكن بوظيفته وخطته .. وقـد جاء الاسلام منسجما مع هذه الفطرة جاريا على هـذا السنن فلا يعبد الا الله .. ولا يكرم الرجل او يعظم الا لعملـه الصالح او جرأته في الحق او لعلمه . وقد حارب الاسلام اشد المحاربة الخضوع للامراء والاغنيـاء لمجرد غناهم او سلطانهم ، وعد ذلك نوعا من الشرك ودعا الى تكريم الفضائل في ذاتها اينما كانت وازدراء الرذائل انى وجدت .

ولذلك كان العرب بفطرتهم احسن الناس فهما للاسلام وقدرة على تطبيقه ، واحتاج غيرهم من الامم الاخرى الى تعلمـه وان يروضوا انفسهم بالتعليم والتربية والمران حتى يحسنوا تطبيق ما جاء به الاسلام، لغلبة الوثنية عليهم وتعلقهم بالاشخاص والاشباح . ومن مظاهر هذه الخاصة في ادب العرب ان القصة قائمة على معنى كريم او دائرة على مأثرة او مكرمـة فلا يذكر من الابطال او الحوادث الا مالا بد منه لتقوم القصة بمعناها وتؤدي غايتها ، على خلاف القصة في آداب الامم الاخرى فهى تقصد لما فيها من حوادث ومفاجآت واوصاف حسيـة لابطالها والقصة في الادب العربي حقيقة لا خيال وهي عنـد غيرهم خيال . ذلك ان العرب يعيشون في حقائق الأخلاق ، ويعيش غيرهم في تخيلها وتصورها . وهذه الخاصة في تمييز العنصر المعنوي الخالد من العنصر المادي الفاني عند العرب سر من اسرار اختيار الله لهم لتبليغ

رسالته الى الناس كافة دون غيرهم من الامم • ففي العرب استعداد وفطرة وفي الاسلام فكرة وتجريد وخلود ومثالية •

وقد هيأ الاسلام لهذه الفطرة العربية ميادين واسعة لتحقيق البطولة في ارفع اشكالها ومجالات انسانية لاظهارها في اسمى انواعها لتكون نموذجا تحتذيه الامم ومثالا تقتدى به الشعوب • فقد تحققت البطولة العربية في ميدان اكتشاف الكون وآفاقه ، واختراق البلدان والقارات في البر والبحر ، وتحققت خاصة **في ميدان تحرير البشر** من حكامهم الظالمين وانظمتهم الفاسدة واهوائهم الضالة • تحققت في ميادين العلم والفكر • وفي آفاق النفس واستشفاف خطراتها ونزعاتها ومشاعرها • فكان العرب المادة التي اتخذها الاسلام لتحقيق مبادئه ؛ وكان الاسلام الفكرة التي حققت البطولة العربية في اروع الاشكال واوسع الميادين •

ان العرب اليوم قد عادوا سيرتهم الاولى • ليرفعوا من الرجال من يحقق لهم العزة والسيادة والحرية والقوة ولو خرجوا من غمار الشعب وهم يرون فيهم ابطالا •

وليخفضوا من أرادوا لامتهم الذل والعار ، وأرادوا بيعها في سوق الاستعمار الدولي وعبدوا الدينار وسجدوا لاصحابه ولو كانوا ملوكا •

ان روح البطولة العربية تستيقظ اليوم من جديد فى كل واحد من ابناء هذه الامة وليس قادة الثورات التحريرية الا معبرين عنها عازفين على قيثارتها نغمات الحرية والسيادة •

وان الذين حققوا النصر والمجد والعزة في العالم لامتهم العربية في الغابر لم يكونوا ملوك الغساسنة ، ولا ملوك المناذرة ، ولكنهم كانوا

اولئك الذين لم يكن يعرفهم او يسمع بهم احد من الناس من قبل • ان الرسول العظيم ، اليتيم الفقير ، واتباعه واصحابه من ابناء الصحراء والبلد الحرام هم الذين جلبوا السعادة للعالم واكسبوا العرب شرف الدفاع عن المظلومين والمحرومين وحماية الحقوق ورد المظالم وتحرير البشرية فكان للعرب المنزلة العظمى عند الله والذكر الخالد في التاريخ •

وان المعارك اليوم امامنا لنرد عدوان المعتدين ايا كانوا ارضاء لله وتحقيقا لشرائعه كلها وتصديقا لحقيقتنا ودفاعا عن أنفسنا وعن تراث الانسانية الذي نحن حماته وحراسه ؛ وأما الاستعمار واجراؤه وعملاء الصهيونية فهم ناهبو كنزه ومخربو بنائه وصرحه •

مراحل البطولة العربية وخصائصها

نحن في أيام احوج ما نكون فيها الى ان نعرف أنفسنا ومكامن القوة فيها ، وان تتدارك تلك الهوة السحيقة التي فصلت بيننا وبين عهد البطولات من تاريخنا ، لنصل البطولات الجديدة بالسالفة ، والمعارك الحاضرة بالغابرة ، لنسير على مستوى أعلى قمة بلغناها ، متقدمين الى الامام نستقبل نصرا بعد نصر ، حتى نلقى الله وقد بلغنا الرسالة ، وادينا الامانة ، وحققنا قوله فينا (ثم اورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا) وقوله : (كنتم خير امة أخرجت للناس) •

نحن في حاجة اليوم لان نعرف تاريخ بطولاتنا ومراحلها وأطوارها وخصائصها وسماتها ، واتجاهها وغايتها •

لقد مرت البطولة العربية في مرحلة استعداد وتكوين قبل الاسلام ،

وكانت المروءة رائدها ، والشرف مقياسها ، والوفاء والكرم والنجدة والشجاعة والشهامة اجنحتها • وكان العرب في ذلك العصر ، عصر الاعداد والتكوين ، كما قال شاعرهم :

يستعذبون مناياهم كأنهمُ لا يخرجون من الدنيا اذا قتلوا

وليسوا كاليهود الذين قال الله فيهم (ولتجدنهم أحرصَ الناس على حياة) •• لا يغدرون ، ولكنهم لا يقبلون الضيم ، ولا يقيمون على الذل والهوان :

انا نعف فلا نريب حليفنا ونجر في الهيجا الرماح وندعي
ونخوض غمرة كل يوم كريهة تروي النفوس وغنمها للاشجع

ولكن البطولة العربية بقيت في هذه المرحلة منحصرة في صعيد الجزيرة العربية وفي اطار القبيلة أو بين القبائل ، وظلت بالنسبة للعالم ثروة مكنوزة ومعدنا مخبوءا لم يستثمر ، وبقيت معارك عنترة ودريدبن الصمة ومغامرات السليك وتأبط شرا احاديث تدور بين قبائل العرب ووقعة ذي قار على ما فيها من انتصار منفردة غير متلاحقة ، عقيمة غير منتجة • فلما ظهر الاسلام ونزل وحي السماء برسالة القرآن سجلت البطولة العربية مرحلة جديدة خصبة غنية :

فقد خرجت من صعيد الجزيرة الى الافق العالمي ، ومن الحوادث الفردية المنعزلة الى النطاق الاجتماعي والعمل المتصل المستمر المتجدد • وغدا العرب بالاسلام امة موحدة لا افرادا وقبائل فحسب ، يوحدها هدف تسير نحوه ورسالةواضحة المعالم تؤمن بها وتدعو اليها،وغدوادولة

منظمة ذات قيادة واعية متجردة ، وأصبحت الحياة العربية في ظل الاسلام مدرسة لتخريج الابطال ، فكثرت البطولات والعبقريات ، وتوالت وتنوعت ، فابو بكر وعمر وعلي وابو عبيدة وخالد وأسامة وسعد وعمرو، ومن بعدهم محمد بن القاسم وقتيبة بن مسلم وطارق وموسى ، وغيرهم من ابطال السلم والحرب في السنين الاولى من الاسلام ، هم قليل من كثير من اولئك الابطال الذين حرروا الشعوب يومئذ من ظلم المتحكمين والطغاة ، ونشروا لواء العدل في شعوب العالم المعروف في ذلك الحين.

ان من مزايا البطولة العربية في هذه المرحلة انها تعلقت بالقيم الخالدة التي هي : الايمان بالله والشعور بالمسؤولية الكبرى أمامه وبما يوجبه ذلك من اقامة العدل بين عباد الله والمساواة بينهم وحماية الضعيف وتحريره من ظلم القوي .

ومن مزاياها انها كانت مشاعة بين الناس غير محتكرة لاحد ، فلا خلود ولا قدسية لاحد من الناس ، فما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وما خلفاؤه الا قادة يُتبعون ما داموا سائرين على سنن الحق ، ويطاعون ما داموا ينهجون طريق الخير ، والعبرة لجمهور الامة وللجماعة (كنتم خير امة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) ، (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ...) فليس يدرى من سيكون من بين الناس البطل ومن سيحمل الراية ، فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وليس محتكرا للاغنياء أو ذوي الانساب أو أبناء الملوك ، فكان الوعي العام والايمان المنتشر في القلوب أرضا منبتة للبطولات .

ومن مزايا البطولة العربية في هذا الطور انها ذات هدف واضح وغاية انسانية ، وهي تحرير البشر ، لا الامتياز أو الاستعلاء أو التفاخر بالمساحات المفتوحة وبعدد القتلى والاسرى • فالمعارك المتلاحقة في اطراف الارض يومئذ ، والتي كانت مظهرا لبطولات كثيرة ، كانت معارك تحرير انساني في سبيل المستضعفين في الارض من الرجال والنساء والولدان •

لقد كانت البطولة العربية درسا نموذجيا لشعوب العالم ، تعلمها الانسانية والمثل العليا ، وتنقل اليها الفضائل التي كانت تحملهـا في نفوسها ، والمبادىء الاخلاقية التي تلقتها من وحي السماء ، لتجعل هذه الفضائل وتلك المبادىء مشاعة بين امم الارض وشعوبها •

ان التقاء المبادىء المنزلة من السماء في رسالة كاملة ختمت بهـا الرسالات وتجاوبها مع الفطرة العربية التي أعدها الله أحسن الاعداد جعل من البطولة العربية النموذج الكامل الذي يصلح أن يكون للعالم مثالا يحتذى ، فكانت في تاريخ العالم مثارا لعبقريات وبطولات في مختلف الشعوب جاءت على مثال البطولات والعبقريات العربية التي اتخذتها اماما وقدوة ومثالا ، فكانت البطولة العربية بالاسلام سبيلا الى توحيد الشعوب على صعيد انساني وفقا لهذا النموذج الرائع •

ولسنا نقول هذا لنكتفي بالقول ونغتر بفعل الماضين من الاجداد والسلف ، فتلك امة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم •

والبطولة العربية اليوم في مرحلة ثالثة ، فهي تستيقظ بعد غفوة ، وتنهض بعد كبوة ، وتتحرك بعد ركود •

لقد احلها الابطال من جنود محمد مكان الصدارة من العـالم ،

واقاموها مقام المعلم المرشد والدليل الهادي من الشعوب . هي اليوم تثور لتخرج نفسها من منزلة التبعية لمن كانوا لها تابعين ، ومن الخضوع لمن كانوا لها خاضعين ، ولتتحرر من الاباحية والظلم والانانية والمادية والعصبية التي حررت هي العالم منها من قبل . انها اليوم في مرحلة التحرر من الاستعمار والخضوع ، والاستعباد والتبعية ، ومن الظلم والاثرة ، ومن الوثنية والمادية . ان الثورات تتلاحق وتتابع ، والمعارك يسطع لهيبها في كل بلد ، معارك مع الاجنبي المستعمر الممثل لظلم القياصرة ، ومعارك مع الحكام الخونة الموالين له الجاحدين لفضل الله على امتهم .

ان البطولة العربية تبعث اليوم من جديد لتسمو الى القمة التي كانت بلغتها واشرفت منها على الانسانية ولتكمل بعد ذلك سيرها الى الامام ..

مدرسة البطولات ومخرج الأبطال

في مساء ذات يوم من بضع سنين دخلت حديقة كراتشي العامة ، وكان الظلام قد دب في الفضاء وأسدل أثوابه السود الرقيقة في الارجاء واذا بي أسمع صوت عجوز هندية تقول بلسان عربي : اللهم صلي على سيدنا ومولانا محمد . فخشع قلبي ، واعترتني قشعريرة سرت في جسمي كموجة الكهرباء ، وقلت في نفسي : بعد أربعة عشر قرنا ، وعلى آلاف الاميال من الحجاز ، وفي هذه البلاد التي طالما عبد أهلها الاصنام وقدسوا الحيوان ، في هذه البلاد الاعجمية اللسان ، يرتفع اسم محمد

ويدوي في الفضاء ! ما هذه العظمة التي دونها كل عظمة ! تنفق الامم اليوم الاموال الوفيرة وتسخر الرجال في سبيل الدعاية ، ثم لا تحصل على نتائج تذكر بالنسبة الى هذه النتيجة التي حصلت ، على بعد الزمان والمكان ؛ هل في الدنيا اليوم أحد لم يصل اليه هذا الاسم العظيم الجميل ؟ وسواء آمن به أم لم يؤمن ، فانه لا بد ان يبعث في نفسه التعظيم أو الاعجاب أو الحب .

لم يعرف تاريخ العرب فترة خصبة بأنواع البطولات كهذه الفترة التي أعقبت قيام محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم بتبليغ رسالته ، ولم يعرف العرب عهدا وزعوا فيه على العالم البطولات وكانوا قدوة للآخرين فتخرج على غرارهم أبطال من شتى الامم كهذا العهد الذي تلى نهوض محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم برسالته .

لقد غدت الجزيرة العربية ، ولا سيما الحجاز ، في عهد الرسالة مدرسة للبطولات ومنبتاً للابطال والعظماء ، تخرج منها أبطال عالميون انتشروا في الارض وشقوا في الحياة طرقا جديدة تسير فيها الاجيال .

لقد غدت الجزيرة العربية مدرسة لتخريج الابطال من كل قوم وجنس ، وكان للعرب الشرف في ان أقيمت هذه المدرسة في أرضهم وبيئتهم واتخذت لغتهم لغة لها .

ان باني مدرسة البطولات الخالدة ومخرج الابطال في حياته وبعد انتقاله هو ذاك الذي كان في مرتبة فوق البطولات وفي قمة لا ترقى اليها نفس بشرية ، هو محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم . لقد انشأ الرسول العظيم جيلا من الابطال والعظماء ، وفي عصر لم تكن فيه المواصلات ميسورة ، ولا وسائل الانتقال والسفر موفورة ولا سريعة ،

استطاع تلاميذ محمد ان يفتحوا من البلاد ، في فترة قصيرة جدا ، وان يحرروا من العباد ، في الشام والعراق ومصر وفارس والهند ، ما يعتبر تحرير قسم صغير منه اليوم من العدو الغاصب ، وتوحيد شطر منه تحت راية واحدة ، بطولة ما فوقها بطولة . ان أقصى ما يبلغه العظيم منا اليوم ، الجدير باعجابنا واكبارنا ، ان يكون متبعا لخطى تلاميذ محمد العظماء ، وان يكون تلميذا بارا ناجحا من تلاميذ الرسول العظيم عليه صلوات الله .

فهل تجد في تاريخ العرب قديمه وحديثه من ترك للعرب في العالم ذكرا يقرن بالخير والتقدم والمثل العليا كما ترك ابن عبد الله ؟ فكل ابطال التاريخ العربي من قادة وفاتحين ، ومصلحين ومجددين ، ومحررين ومنقذين ، ليسوا الا أتباعا وتلاميذ ، ومقلدين مقتدين ، وآخذين بطرف أو ناحية من نواحي عظمته ، وناهلين من ينبوعه الثر الفياض .

وهل عرف الناس في تاريخ العالم انسانا ساواه في عمق أثره في نفوس البشر ، وامتداده في بقاع الارض ، واستمراره خلال العصور ، وفي سعة آفاق عظمته وتعدد مناحيها ؟

لئن كانت رسالته قد بدأت بقومه فقد تجاوزتهم الى امم الارض والى أفق الانسانية الرحب ، ولئن ظهرت رسالته في عصره فانها لم تقف عنده بل تجاوزته الى العصور المتوالية من بعده ، وقد مضت القرون وأثر هذه الرسالة لا يزال مستمرا خالدا .

ولئن كانت نقطة الانطلاق في رسالته اصلاح النفس وتطهيرها ، فان خطة الاصلاح لم تقف هناك ، بل تجاوزتها الى اصلاح المجتمع ، بأسرته وروابطه ، بنظام اقتصاده وطريقة حكمه وأساليب تربيته .

لم يعرف التاريخ رجلا ترك هذا الاثر العالمي في شعوب الارض وامها ، في تطهير معتقداتها ، ورفع مستوى تفكيرها ، وتحريرها من الخرافات والعبوديات ، واشعارها بكرامتها الانسانية ، وتكوين شعور انساني أوسع من القبيلة الضيقة والقومية المغلقة والعصبية الخاصة ، كذلك الاثر الواسع العميق المستمر الذي تركه النبي صلى الله عليه وسلم .

لهذا فلا مجال للمقارنة بينه وبين أية شخصية عربية أو غير عربية في كل زمان ومكان ، ولا يجوز الموازنة والمقايسة بينه وبين غيره من رجالات العرب او الامم الاخرى مهما جلوا وعظموا . لقد أقام الله منه شاهدا على العرب يشهد بحملهم للرسالة وتبليغهم للامانة ، كما أقام من العرب شهداء على الناس ليعرفوا انصياعهم للحق وصدودهم عن الباطل (ليكون الرسول شهيداً عليكم ، وتكونوا شهداء على الناس) فلئن كان الخطاب الاول لعشيرته (وانذر عشيرتك الاقربين) وانذاره لقومه (لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك) فان رسالته عامة (وما أرسلناك الا كافة للناس) ، (وما أرسلناك الا رحمة للعالمين ،) (ليكون للعالمين نذيراً) ، (قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعاً) .

ان عظمة محمد صلى الله عليه وسلم ليست نبوغاً شخصياً أو تميزاً بالمواهب والخصائص فحسب ، ولكنها أيضاً اصطفاء من الله واختيار منه لرسوله ، انها فوق العظمات الدنيوية والبطولات الارضية ، انها رسالة من السماء ونبوة ، والنبوة في العربية من الارتفاع والسمو ، من نبا الشيء اذا ارتفع ، أو من الاخبار بما وراء هذا الوجود الظاهر من النبأ وهو الخبر ، انها النبوة التي كانت ينبوعا تنهل منه البطولات ، والرسالة

التي كانت مصدرا للعظمات وسببا للرفعة والذكر •

انها خالدة لانها من صنع الله الذي أحسن كل شيء خلقه ثم هدى ، ولانها صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ، ليست من صنع عقل متحول ولا من ابداع فيلسوف تبلى فلسفته ، ولا نتيجة عبقرية تمضي مع زمانها ، انها اصطفاء من الله ، واتصال بين الخالق المقتدر العليم ونفس مختارة ارتفعت الى أعلى ذرى البشرية وقممها (انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا) «الاحزاب» •

واذا كان الناس في مشارق الارض ومغاربها يرددون اسم محمد مترنمين ، يجلونه في قلوبهم ويكبرونه بعقولهم ، فمن أولى من العرب باعلاء ذكره ، والتغني بحبه ، والتأسي بسيرته ، والتمثل بمبادئه وتعاليمه وتصديقه في قوله •

فعليك يا محمد صلوات من ربك وتحيات من قومك ، والى دعوتك ترنو أبصار الانسانية المعذبة وترتفع أصواتها المختنقة بالعبرات ، لتحررها وتفك اغلالها وتحل قيودها لتنطلق بعقولها وقلوبها نحو الله في آفاق كونه الرحيب •



منشورات الطليعة العربية في تونس

فيفري
1995